

تحولات مفاهيم الدولة والاستعمار والرأسمالية والبيروقراطية

The Transformations of the Concepts of the State, Colonialism, Capitalism and Bureaucracy

غادة علي السمان، جامعة بيرزيت - فلسطين

*ghadasamman686@gmail.com

تاريخ القبول: 24-01-2024

تاريخ الإرسال: 10-08-2023

ملخص:

تتعمق هذا الدراسة في مفهوم الدولة وتبدأ في تتبع السياق التاريخي لفكرة الدولة-الأمة الأوروبية، وكيفية توريد هذا النمط من الدولة إلى دول "العالم الثالث" والتي أنتجت استعمار داخلي وتحولت إثر تحولات التجربة الأوروبية. إن النظام الرأسمالي ترجع جذوره إلى القرن الخامس عشر حيث بدأ بناء هذا النظام من خلال النهب والسرقة والقرصنة، وأخذ يتطور مع الزمن ويأخذ بُعد تنظيمي من خلال المرور بمراحل مختلفة حتى الوصول إلى النظام النيوليبرالي (الليبرالية الجديدة)، وهو يعبر عن المرحلة الأخيرة للتطور الرأسمالي. ضمن هذا السياق الأوروبي ظهر مفهوم الدولة القومية الأوروبية، وظهر مفهوم الحداثة الأوروبية كمحاولة لتقديس التقدم والتطور. أخذ مفهوم الدولة يتطور من دولة قومية إلى وطنية إلى ليبرالية إلى نيوليبرالية، وأخذت الحداثة تتطور إلى مرحلة ما بعد الحداثة كتعبير عن مأزق العمليات التي وقعت به الحداثة كتقديس للعقل الإنساني، وأخذت الإدارة البيروقراطية تتطور ضمن تلك المراحل أيضاً. إن الاستعمار وتحولاته لا يمكن فصله عن التاريخ الثقافي والفكري والاقتصادي الأوروبي، والذي حدد طبيعة وبنية أنظمة "دول العالم الثالث" من حيث نظامها الاقتصادي والسياسي والإداري، وهو ما تحاول هذه المقالة توضيحه على المستوى المفاهيمي.

كلمات افتتاحية: الدولة، الرأسمالية، النيوليبرالية، الاستعمار، البيروقراطية.

Abstract:

This study aims to go deeply in the concept of the “state” and tracing the historical context of the idea of the European nation-state, showing how this type of state was transformed to the “third world” states, which produced internal colonialism, and was transformed according to the transformation of the European experience. The Capitalist system dates to the 15th century, when this system began to be built through plunder, theft, and piracy. It began to develop over time and take an organizing dimension through different stages until reaching neoliberal (new liberalism) stage, which expresses the final stage of capitalist development. Within this European context, the concept of the European national state emerged, and the concept of European modernity as an attempt to sanctify progress and development. The concept of the state began to develop from a national state to a patriotic state to liberal state to neo-liberal state, and modernity began to develop to post-modern stage as an expression of the impasse that modernity fell into, due to the sanctification of the human mind. Also, the bureaucratic administration began to develop as well. Colonialism and its transformations cannot be separated from the European cultural, intellectual, and economic history, which determined the structure of the systems of the “third world countries” in terms of their economic, political, administrative system, and that what this article attempts to clarify at the conceptual level.

Keywords: State, capitalism, neoliberalism, bureaucracy.

المقدمة

تتعمق هذا الدراسة في مفهوم الدولة وتبدأ في تتبع السياق التاريخي لفكرة الدولة-الأمة الأوروبية، وكيفية توريد هذا النمط من الدولة إلى دول "العالم الثالث" والتي أنتجت استعمار داخلي وتحولت إثر تحولات التجربة الأوروبية. ويوضح اقتران تاريخ تطور مفهوم الدولة بالاستعمار والحدثة والبيروقراطية والرأسمالية والتي جميعها مفاهيم متحولة وقد أخذت أشكال وأنماط مختلفة عبر الزمن، وفُرضت هذه الأنماط على الدول الأضعف مع استمرارية الاستعمار.

يبدأ هذا البحث بالتعمق في فكرة الدولة الأوروبية – القومية وتطوراتها وكيفية اقترانها بالنظام الرأسمالي والاستعمار ونشوء الحدثة الغربية وتحولاتها. ولاحقاً يشرح مفهوم الدولة العربية وكيفية إنتاجها وتأثراتها وتحولاتها ضمن التحولات الغربية، والشكل النهائي لها حيث أخذت شكل "الدولة النيوليبرالية"، مع توضيح اشكالية الدولة النيوليبرالية كمرحلة متطورة من الرأسمالية وعلاقتها بالمنظومة الاستعمارية والبيروقراطية النيوليبرالية.

1- الدولة القومية-الأوروبية والاستعمار

بدأت ملامح الدولة الأوروبية تتأسس منذ تطور النظام الرأسمالي، وأخذت تتحول طبيعة الدولة مع التحولات الرأسمالية، دامجين بها الدول الأضعف ضمن سياقهم الرأسمالي والاستعماري والحدائي والصراعي. أنتج هذا السياق نظام عالمي فيه "مركز وتابع"، فيه "العالم الأول" و"العالم الثالث"، وتم توريد النمط الإداري والاقتصادي ونظام الحكم إلى دول "العالم الثالث" من خلال صناعة نخبة رأسمالية حاكمة من السكان والتي أنتجت نظام استعماري داخلي في دولها.

يصف قانون أوروبا بأنها من صُنِع العالم الثالث ويعتبرها لا أخلاقية باستعبادها وفرض نموذجها على الآخر، ويقول "أليس علينا أن نفعل شيئاً آخر غير خلق أوروبا ثالثة، لقد أراد الغرب أن يكون مغامرة للفكر، وباسم الفكر، فكر أوروبا طبعاً إنما سوغت أوروبا جرائمها، وجعلت استعبادها لأربعة أخماس الإنسانية شريعاً (فانون، 1972، صفحة 222). ويرى شارلز تيلي أن الدولة الأوروبية تقوم على العنف والاحتكار والبلطجة وهي لا تختلف عن عمل الجريمة المنظمة، وقد أدت وسائل العنف المنظمة في ظهور وتحول تلك الأشكال المميزة من الحكم إلى إنتاج ما يطلق عليها الدولة-الأمة. يربط تيلي بين الرأسمالية التجارية وبناء الدولة فكلاهما عززا بعضهما البعض خلال الفترة التاريخية الطويلة التي أصبحت فيها الدولة -الأمة التنظيم المهيمن في الدول الغربية. ويرى أن تفاعل صناعة الحرب واستخراج الموارد ومراكمة رأسمال معاً أدت إلى صناعة ملامح الدولة الأوروبية القومية، دون

أن يضعوا صوب أعينهم الدولة الوطنية كهدف (Tilly, 1985). أما هوبسباوم فيركز على القومية واقتراحها بالتقاليد المبتدعة وما يميزها من استمرارية الأوهام المختلفة، واستخدامها لأدوات قديمة في صياغة وبناء تقاليد مستحدثة ذات نمط جدد، فلا يمكن فهم القومية بدون ذلك، لأنها تجسد الأمة في صورة أو رمز، يظهر كجزء من بنائها، وبالرغم من كثرة عمليات الابتداع فإنها لم تملأ بعد أكثر من جزء صغير من الفراغ الذي نشأ بسبب الانهيار المتواصل للتقاليد والعادات الاجتماعية القديمة، وهو ما يفسر الكثير من المشكلات المقترنة بها (هوبسباوم، 2004).

يرى ماكدوف أنه منذ البداية استخدمت القوى الاستعمارية الأوروبية قوتها العسكرية من خلال القرصنة والنهب لضم المناطق الأجنبية، ويقسم التطور الرأسمالي إلى مراحل بدأت من التجارة الأوروبية منذ نهاية القرن 15 ووصلت إلى احتكار رأسمال والامبريالية الجديدة (1880 حتى الحرب العالمية الأولى)، حيث تم تقسيم 85% من العالم بين الدول الاستعمارية، وكان أهم تحول جوهري في تلك الفترة هو التحول من المنافسة إلى الاحتكار الرأسمالي، وإحداث تدخل أعمق في النظام الاقتصادي العالمي، فالعالم أصبح مكان لإنتاج حاجات الدول الاستعمارية. وفي المرحلة الأخيرة وهي إزالة الاستعمار وصعود الشركات المتعددة الجنسيات منذ الحرب العالمية الثانية وظهور الولايات المتحدة كقوة محافظة على النظام الاستعماري الجديد والتدخل في الساحة الدولية بشكل مباشر وغير مباشر بالمستعمرات السابقة، بالأخص من خلال دور البنك الدولي وصندوق النقد الدولي (Magdoff, 1982, pp. 11-29).

أما نشوء الحداثة ضمن التاريخ الأوروبي فتكمن جذورها في التجربة والفكر الغربي كمحاولة لتفسيرهم واقعهم الاجتماعي، والتي "سعت إلى فكرة الاستمرارية، ولكن ليس بشكل محايد وإنما كتقدم وتطور" (Smith, 2003, p. 44)، فقد تبنت أوروبا العقلانية والعلمانية كأساس فكري لإزالة أي عائق على التقدم وللوصول إلى حالة من "اليوتوبيا" أي المجتمع المثالي مع تقديس العقل الإنساني والحرية، والتمرد على السلطة الدينية المسيحية والتحرر من استبدادها. وارتبطت الحداثة العقلانية بالإدارة البيروقراطية حيث هيمنت الفاعلية كقيمة عليا للمجتمع. لذلك يرى هارفي أن مشروع الحداثة (وهو مصطلح أطلقه هابرماس) يرجع إلى القرن 18 ويرى أن فكرة "التدمير الخلاق" مهم لفهم الحداثة لأنها نابعة من مأزق العملية التي واجهت تطبيق مشروع الحداثة، والذي يتطلب تدمير كل شيء لبناء عالم جديد (هارفي، 2005).

ويرى بيرمان أن الحداثة توحد البشرية، لكنها وحدة أضداد، وحدة اللاوحدة، فهي تحلينا جميعاً إلى خضم تيار من العزلة المتزايدة والولادة من جديد، من الكفاح والتناقض، من الغموض والقلق

العميق، فإن تكون حدثاً هو أن تكون جزءاً من عالم حدثي (Berman, 1982, p. 15). وبين هارفي (2005) أن من نتائج الحياة الحدثية تخلي الحدثية حتى عن ماضيها الخاص، ناهيك عن أي نظام اجتماعي سابق للحدثية، فالانتقالية التي بانت تحكم الأشياء جعلت من الصعوبة بمكان الاحتفاظ بحس التاريخ وديمومته. وإذا كان هناك من معنى للتاريخ، فيجب العثور عليه وتعريفه من داخل دوامة التغيير. تستلزم الحدثية قطيعة لا ترحم مع الشروط التاريخية السابقة، على مستوى الأجزاء، كما على مستوى الكل. بل تتم أكثر من ذلك بصيرورة انقطاعات وتشذرات داخل الذات لا آخر لها. ويرى هارفي أن الجانب المخفي في الحدثية هو احتفائها الضمني بالسلطة والعقلانية البيروقراطية المؤسسية، تحت قناع العودة إلى العبادة الظاهرة لفاعلية الآلة كخرافة مناسبة تجسد أحلام البشر (هارفي، 2005). أما مرحلة "ما بعد الحدثية" فقد جاءت كرد فعل على الحدثية واقتربت بأفكار ومفاهيم التشظي والانقطاعات والفوضى والضياع والتداخل وعمق التحول في بنية المشاعر، والتمرد على أفكار التنوير من تقدم وعقلانية، والانقسام وانهايار النظام الزمني للأشياء واللارواية والمصطنع والسطحية واللحظية والحياد وعدم الارتباط بمشروع له طابع كلي وفقدان العمق والآخر ووجود عوالم أخرى، وارتباطها بالرأسمالية وتوحيدها في الحياة اليومية.

تزامن مع الحدثية ظهور القومية، وهي ظاهرة سياسية وثقافية وأيديولوجية. "هي ظاهرة حديثة أخذت في الانتشار في أواخر القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من وجود أفكار مشابهة لها في أزمنة سابقة، فإن تطور القومية جاء ملازماً لتطور الدولة الحديثة" (إدجار وسيدجويك، 2009، 489). يتوافق ذلك مع طرح بندكت أندرسن الذي يرجع ظهور القومية إلى نهاية القرن الثامن عشر ويرى أنها نتاج الحدثية ونتاج الرأسمالية. يعرف غدنز القومية بأنها "منظومة من المعتقدات والرموز التي تعبر عن الوحدة والتماهي بجماعة قومية محددة" (غدنز، 2005، 759). "إن الدولة القومية هي التي تتمتع بالاستقلال السياسي والمعايير المتميزة والمبادئ القانونية الخاصة، وذلك فيما يتصل بأنظمتها الخاصة بالعلاقات الاجتماعية، كما أنها تتمتع بهوية اقتصادية مستقلة استقلالاً نسبياً" (إدجار وسيدجويك، 2009، 304). إنَّ الحدثية والدولة القومية هي مفاهيم متشابكة ومحورية في التاريخ الرأسمالي الأوروبي والعالمي، وأثرت على دول العالم. يرى أرنست جلنر أن القومية مبدأ سياسي ويؤكد أن الوحدة السياسية والوطنية يجب أن تكون منسجمة ومتطابقة، وأنها ظهرت في فترة الحدثية حيث يعتبرها نتاج التطور الصناعي الرأسمالي والتنظيم الاجتماعي الصناعي، وهي من صفات العالم الحديث لأنها حلت مكان الأسس التقليدية. ويرى أن الاستعمار والامبريالية ومحاولة التحرر منهم أدى إلى نشر القومية في العالم. ويركز على دور التعليم في إنشاء الفرد الحديث من خلال ولائه للثقافة وليس لشيء آخر مثل الدين أو الأرض (Gellner, 1983). يدافع كليفوردي غيرتز عن القومية ويرى أن

فيها اللغة والتاريخ والثقافة، ولكن لديها سمعة سيئة فيتم التركيز على سلبياتها، حيث يتم النظر إلى الأيديولوجيات بدون فهم عملية صياغة الرموز وتفاعلاتها وما تنتجه من معنى وحقائق اجتماعية وواقع اجتماعي، فيُنظر إلى الأيديولوجيا وتنتائجها عرضياً بدون وجود إطار تحليلي لذلك وبدون فهم السياق (الوصف الكثيف). ويرى أن القومية كانت وما تزال القوة المحركة خلف بعض الحركات التغييرية الأكثر إبداعاً في التاريخ وستكون في المستقبل أيضاً، هي التي أدت إلى توحيد الناس وإلى التخلي عن رموز مفتته ومشتته وأدت إلى التضامن وإنشاء روح القومية وهي ما دعا لها كل من غاندي وفانون، فأبطال القومية يصنعون الدولة والدولة تتكفل بصناعة الأمة، ويرى أن الاستعمار أدى إلى توحيد الشعوب المستعمرة في دولها من خلال تبنيها القومية في مواجهة الاستعمار وعندما تحررت أصبحت دول محددة نحو ذاتها ووجود ذاتية جماعية (نحن) تناسب منها أنشطة الدولة تلقائياً (غيرتر، 2009).

لاحقاً بعد تطور القومية في المجتمعات الأوروبية، أصبحت مفهوم مشكوك فيه وجدلي في القرن الواحد وعشرون من وجهة نظر الغرب، يرى ويمر (2019) أن القومية الآن تعتبر أيديولوجية خطيرة من وجهة نظر العديد من الغربيين المتعلمين وأنها ضيقة الأفق وغير أخلاقية وتعزز الولاء الأعلى لبلد على حساب الالتزامات الأعمق بالعدالة والإنسانية. وأصبح هناك تمايز بين مفهوم القومية ومفهوم الوطنية ويظهر ذلك في تعبير رئيس فرنسا "أن القومية خيانة للوطنية"¹. ولكن بالمقابل هناك الشعوب الذين ما زالوا يدافعون عن القومية وعن مصالحهم ضد المهاجرين والنخب المتفجرة إلى المعرفة والتعاطف، ويفسر ويمر أن الوطنية هي شكل من أشكال القومية، وهي أحد المبادئ التأسيسية للعالم الحديث. أيضاً يفيد ويمر أن من إيجابيات القومية تحقيق العدالة والديمقراطية وتحقيق دولة الرفاه، إلا أنها أنتجت أحداث دموية على مستوى العالم، وهي تميل إلى العنف الذي يوزع بشكل غير متساو عبر العالم (ويمر، 2019).

ينتقد بارثا شترجي القومية في بلدان العالم الثالث وآلية توظيفها ضمن النظام الاستعماري ويقول:

إن القومية، منظوراً إليها كجزء من قصة الحرية، يمكن تعريفها كإطار أيديولوجي عقلاني لتحقيق الغايات السياسية العقلانية والجديرة بالثناء. لكن تلك لم تكن هي الكيفية التي جعلت بها القومية حضورها ملموساً في الكثير من التاريخ الحديث. فقد كانت السبب في الحروب الأكثر تدميراً التي شهدت؛ وسوغت وحشية النازية والفاشية؛ وأصبحت أيديولوجيا الكراهية العرقية في المستعمرات وولدت بعضاً من الحركات الإحيائية الأكثر لاعقلانية إضافة إلى الأنظمة السياسية الأكثر قمعية في العالم المعاصر. كان الدليل دامغاً

بالفعل على أن القومية والحرية يمكن في غالب الأحيان أن تكونا متعارضتين على نحو لا يقبل المصالحة (تشرجي، 2013، 30).

نستنتج مما سبق أن اشكالية الدولة القومية في دول "العالم الثالث" تتجسد ضمن عدة مستويات:

أولاً: كيفية بناء الدولة القومية القائم على النهب والعنف والاستعمار واستباحة الآخر، فقد ظهرت ضمن تطور الرأسمالية، وثانياً: الحداثة وما بعد الحداثة واشكالية العقلانية الغربية ومحاولة تجريد المجتمعات من ثقافتها، والصراع بين الرأسمالية والاشتراكية على من يقود مشروع الحداثة من رؤيا استشرائية. ثالثاً: الدمار التي أحدثته في العالم منذ نشوئها وحتى الآن وتحديداً ما أنتجته من حربين عالميتين. رابعاً: تم توريد شكل الدولة القومية إلى دول العالم الثالث بكل معطياتها المتناقضة، وعلى مستوى آخر الاستمرارية في استعمارها والسيطرة عليها واستغلالها وافقارها، وما أنتجته من دمار داخلي على مستوى الحروب والنزاعات الداخلية في تلك الدول من خلال إثارة القبلية والطائفية والمناطقية والاختلافات الدينية. خامساً: تبني مفاهيم لم تنبثق من التجربة الذاتية المحلية في دول "العالم الثالث" وإنما نتاج ما فرضه الاستعمار على تلك الدول من خلال فرض النظام البيروقراطي وإحداث تغييرات إدارية ومالية في النظام. إضافة إلى ذلك التناقضات الذاتية في جوهر المفهوم من حيث تبني العقلانية الغربية والمساواة وسيادة القانون، ولكن بالمقابل ممارسة الاستعمار وممارسة العنف.

إن المنظومة الرأسمالية وتحولاتها لا يمكن فصلها عن الاستعمار الذي سعى إلى امتلاك المصادر والأراضي والسلطة واستغلال العمال وممارسة الفوقية الأوروبية في استباحة الآخر وفرض لغته ومفاهيمه. تُمايز أنيا لومبا بين الاستعمار قبل النظام الرأسمالي وبعده، حيث ترى أن الاستعمار الحديث تأسس جنباً إلى جنب مع الرأسمالية في أوروبا الغربية، وقد فعل أكثر من استخلاص الأتاوات والبضائع والثروة من البلدان المقهورة، إذ أعاد بناء اقتصاديات البلدان المقهورة، وأدخلها في علاقة معقدة مع اقتصاده بحيث أصبح هناك تدفق للمصادر البشرية والطبيعية بين البلدان المستعمرة والبلدان المستعمرة.... وترى أنّ الاستعمار كان القابلة التي ساعدت في مولد الرأسمالية الأوروبية، أو أنه بدون الامتداد الاستعماري فإن التحول إلى الرأسمالية لم يكن ليحصل في أوروبا (لومبا، 2007، 19). يأخذ الاستعمار أبعاد ثقافية واجتماعية وعرقية وجندرية واقتصادية وتاريخية، في حين أن الرأسمالية تبدو أن لها بعد اقتصادي فقط، ولكن في الواقع أن النظام الرأسمالي وآلياته مقترن بثقافة الربح والفردانية والاستغلال وتراكم رأسمال، كما أن لها تاريخ تطوري ومنطق خاص بها، ولا

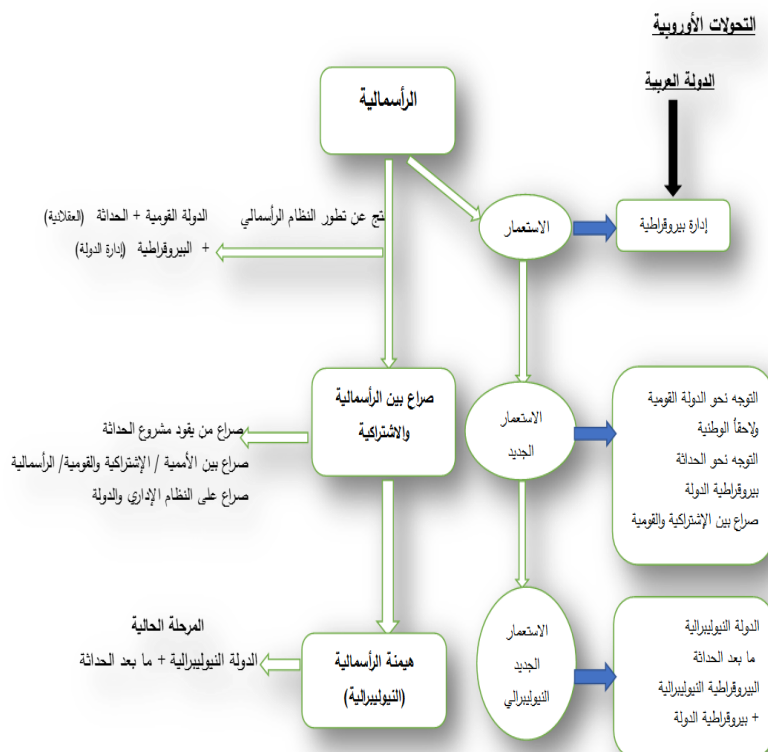
يمكن فصلها عن الثقافة والتي ظهرت بوضوح في مرحلة النيوليبرالية حيث أصبح كل شيء متمفصل على المنظومة الرأسمالية، في سياق أصبح العالم أكثر تقارباً وتأثراً في ظل التطور التكنولوجي وهيمنة العولمة، وارتباطه جميعه بأحداث تمس العالم كله.

اقترن تحول الدولة الأوروبية بتحول في طبيعتها الاستعمارية، ففي البداية كان استعمار وجودي، ولاحقاً بعد الخروج من تلك الدول تحول إلى استعمار جديد مع إنشاء دول على نمط "الدولة القومية" ولاحقاً تم إحلالها بالدولة الوطنية، وفي فترة هيمنة الولايات المتحدة كقوة عالمية تحول الاستعمار الجديد إلى استعمار جديد مختلف مقترن مع تحولات الحداثة إلى ما بعد الحداثة، والدولة الوطنية إلى دولة نيوليبرالية ومتأثرين بالنظام البروقراطي النيوليبرالي العالمي، مع وجود تداخلات بينهم، وهو ما يطلق عليه هذا البحث مصطلح "الاستعمار الجديد النيوليبرالي"، وهو ما سوف يتم شرحه في هذا المقال.

في الثمانينات ظهر مصطلح "ما بعد استعمار" والذي لاقى النقد اللاذع، على اعتبار أن المصطلح يعني أن الاستعمار قد انتهى، والدخول في مرحلة جديدة، إلا أنه ظهر نتيجة تأثر مفكره مثل إدوارد سعيد وهو مبابا بالسياق الما بعد الحداثي، ومستخدمين الأدوات المعرفية الغربية التي شملت مصطلح "ما بعد" مثل ما بعد البنيوية وما بعد التفكيكية. ترى Shohat (1992) أن مصطلح ما بعد الاستعمار أدى إلى التضليل من حيث الزمن، وعلاقة الماضي والحاضر والمستقبل، والمساواة بين المستعمر والمستعمَر، وكأن مرحلة الاستعمار قد انتهت، وترى أيضاً أن مصطلح "ما بعد الاستعمار" يجعل المؤقتة اشكالية، وذلك لعدم وجود محددات تاريخية "لما بعد" مما تؤدي إلى انهيار التسلسلات الزمنية المختلفة. وتضيف أن مصطلح "ما بعد الاستعمار" يحمل في جوهره أن الاستعمار أصبح مسألة في الماضي. وبالتالي التقليل من آثار الاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي على الحاضر، الما بعد استعمار بدون قصد تظهر بشكل براق لحقيقة الهيمنة العالمية.

يلخص الشكل التالي التحولات الرأسمالية في أوروبا وما ترتب عليها من تحولات وتطورات في الدول المستعمرة. أدى تطور النظام الرأسمالي إلى نشوء القومية والحداثة الغربية وبروقراطية الدولة، وكان الاستعمار محور رئيسي لتطور النظام الرأسمالي، لذلك استعمرت أوروبا معظم العالم، واستعمرت المناطق العربية وحددت حدودها، وأحلت أنظمة جديدة تخدم مصالحها في تلك المستعمرات. وبعد انتهاء الوجود الاستعماري في تلك الدول والحصول على استقلالها، أخذ الاستعمار شكل آخر وهو الاستعمار الجديد، وقد تأثرت تلك الدول في الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية والذي انعكس على تجاربهم التاريخية الخاصة، إضافة إلى التوجه نحو الحداثة. لاحقاً وبعد هيمنة

الرأسمالية، فقد تحولت وأخذت طابع جديد حيث هيمنة النظام النيوليبرالي والتحول من الاستعمار الجديد إلى الاستعمار الجديد النيوليبرالي وتأثرهم فيما بعد الحداثة والبيروقراطية النيوليبرالية.



الرسم (1) تبين مراحل الرأسمالية وتطورها وأثرها على تحولات الاستعمار ومفهوم الدولة العربية

2- اشكالية الدولة العربية والبيروقراطية والاستعمار الجديد

تُدار الدولة من خلال نظام بيروقراطي حيث تُنظم البيروقراطية العلاقة بين الحكومة والشعب والعلاقة بين الناس، ويستخدم لذلك مصطلح بيروقراطية الدولة، وعندما تهيمن البيروقراطية على الدولة تصبح "الدولة البيروقراطية". فتعبر البيروقراطية عن بنية الدولة ونظامها وجهازها وهي التي تعطي طابع الدولة، ومن خلالها تُقر قوة الدولة وهيمنتها على العنف المشروع، كما أنها تعبر عن النظام العقلاني ضمن فعل عقلاني منظم من منظور ماكس فيبر، فهي تجسد العقلانية الغربية ضمن نظام يتعالى على مصالح وأطماع وصراعات الأفراد من خلال القوانين والإجراءات وآليات التنفيذ لتحقيق الضبط والفاعلية والكفاءة في العمل. اقترنت البيروقراطية بظهور وتطور الحداثة والتركيز على الفاعلية والإنتاج والدقة في العمل ضمن السياق التاريخي الأوروبي. وتعمل البيروقراطية على استمرارية النظام والدولة وصعوبة إحداث تغيير جوهري فهي تعيد إنتاج نفسها داخلياً وتساهم في تعريف الواقع الاجتماعي، لأنها تعتمد على التراتبية والخضوع والطاعة للنظام المقنن، ولذلك فأي تحول عادة يقترن في تغيير الفئة العليا، كما أن تطوّر الدولة مقترن بتطور البيروقراطية فلا يمكن فصلهم.

في عام 1917 قسّم الاستعمار حدود المنطقة العربية ووضع حدود المشرق العربي على الخارطة، بما فيه لبنان وسوريا وفلسطين والأردن والعراق. حصلت المناطق المقسمة حدودياً على الاستقلال وضمن الحدود الاستعمارية بعد عدة عقود وفي أزمان متفاوتة، وهو استقلال مقترن مع بناء "الدولة" على نمط الدولة- القومية الأوروبية والمقترنة أيضاً بالنظام الإداري البيروقراطي والمتأثر بالسياق الحداثي والصراعي الأوسع بين الاشتراكية والرأسمالية.

الدولة العربية ما بعد الاستقلال والاستعمار الجديد

منذ حصول الدول العربية على استقلالهم وهم في معظم الوقت في حالة من الفوضى مع وجود فجوة كبيرة بين الدولة نفسها والمجتمع، حيث أصبح يطلق عليهم الدول الاستبدادية أو التسلطية، وعندما يتم توصيف موقف من حدث ما، يتم المفارقة بين موقف الدولة وموقف الشعب نفسه.

في سعيها إلى التحرر من الاستعمار ومن النظام الرأسمالي والذي استولى على خياراتها، توجهت الدول العربية نحو القومية وتبني الحداثة الغربية. فعندما خرج الاستعمار (الوجود العسكري) حاولت الدول العربية أن تطرح "القومية العربية" وكان لجمال عبد الناصر دور جوهري على الساحة العربية، إلا أنّ هذه الفكرة لم تنجح بعد فصل الاتحاد بين جمهورية مصر العربية وسوريا والتي لم

تدم أكثر من أربعة سنوات (1958-1961)، وبعدها بسنوات قليلة حدثت النكسة (1967)، إضافة إلى وجود صراع على الساحة العربية بين جمال عبد الناصر (الناصرية) وعبد الكريم ناصر رئيس وزراء العراق على من يسيطر ويقود مشروع الحداثة العربي "القومي الرأسمالي" أم "الأممي/ الاشتراكي"، وكأنه انعكاس للسياق الأوروبي وهيمنته على السياق العربي.

مع تبنيها وتوجيهها نحو الحداثة الغربية أخذت الدول العربية فكرة "الدولة الوطنية" بعد أن ضعفت فكرة القومية. وكانت فترة الحرب الباردة بين الاشتراكية والرأسمالية قد أعطت بعض المجال للفكر والتطور نتيجة تخفيف قبضة أوروبا على "العالم الثالث" ضمن المنافسة بينهما ومحاولة كسب كل منهم الأطراف إلى جانبه، لذلك كان هناك نوع من الازدهار والتطور في تلك الفترة في البلدان العربية. وحاولت المجتمعات العربية تبني الحداثة في ظل المحافظة على القيم والثقافة والتراث، ولكن هذا أدخلها في تناقضات حادة لأن تبني الحداثة الغربية العقلانية تفرض تدمير ما قبل من أجل بناء ما بعد. ومن أجل بناء "دولة" على النمط الغربي لا بد من الاستعمار، لأن بناء الدولة الأوروبية كان من خلال استعمار العالم والشعوب، والتي تم فصلت واقتربت مع تطور الرأسمالية. يبين برهان غليون أنّ "المشكلات الكبرى والأزمات والتصدعات التي تعانيها المجتمعات العربية هي الثمرة المرة لمشروع الحداثة ذاتها، ويرى أن مشروع التحديث فشل في الدول العربية حيث تختصر الدول التحديثية التي عرفتها المجتمعات العربية الحديثة، مثلها مثل أغلبية المجتمعات الفقيرة والنامية، التناقضات والمطبات والمخاطر كلها التي حولت الحداثة في معظم المجتمعات من ديناميكية تحررية إلى مصدر للإعاقة ومراكمة الانسداد والاحتقانات والتوترات والتزاعات" (غليون، 2015، 9). وتحول الاستعمار إلى الداخل وتم تكوين طبقة بيروقراطية ورأسمالية والتي أخذت تصارع لوجودها المقترن بالدولة، والتي أخذت تُنفذ السياسات المفروضة عليها، وتنهش بالدولة ولذلك أصبحت هذه الدول تُجسد "الاستعمار الجديد".

في كتاب Nkrumah Kwame الذي نُشر عام 1965 بعنوان "الاستعمار الجديد- آخر مراحل الامبريالية"، يرى الكاتب أن جوهر الاستعمار الجديد هو أن الدولة هي نظرياً مستقلة ولها كل الزخارف الخارجية للسيادة الدولية، ولكن في الواقع نظامها الاقتصادي موجه من الخارج وبالتالي سياستها كذلك. ويرى أن نتائج الاستعمار الجديد تجعل الأموال الأجنبية تُستخدم للاستغلال وليس لتنمية الدول الأقل تطوراً في العالم. إنّ الاستثمار تحت الاستعمار الجديد يزيد الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة، ويرى أنه أسوأ شكل من الامبريالية، فهؤلاء الذين يمارسونه، يسعون للقوة بدون مسؤولية، وأولئك الذين يعانون منه، يمارس عليهم الاستغلال بدون إصلاح (Nkrumah, 1965).

اقتزن نشوء الدولة العربية بتبني الحداثة الغربية المتمثلة بالعقلانية والتقدم والتطور مع الاستعمار الجديد (خروج المحتلين)، وتبني نظام بيروقراطي متضخم. ويرتبط المجتمع الحداثي بنفي المجتمع التقليدي، حيث لا يحدث تطور نحو مجتمع حداثي إلا بمقدار التخلي عن المجتمع التقليدي، وهذا بدوره يؤثر على الأدوار التقليدية مثل الأسرة والعائلة والحمولة، ويُحدث تحول ضمني في المؤسسات التي تتبنى العقلانية البيروقراطية فتتداخل مع الأدوار التقليدية في المجتمع.

إن فكرة الدولة بعد الاستقلال ارتبطت بمؤسسات بيروقراطية يحتكرها أقلية لصالحهم مع فرض النظام على الشعب من خلالها. "إن الدولة الوطنية استطاعت التوسع في دورها وسلطتها الدولية، فأصبحت متضخمة في الطبقة البيروقراطية وحجم الجيش والقوى الأمنية، ولكن قدرتها ظلت محدودة في النفاذ إلى المجتمع وافتقدت قوى ضبط حقيقية نظراً لضعف بنيتها التحتية" (عبد الرحمن، 2019، 9). وهذا مقترن بفكرة الدولة وأسسها غير الأخلاقية، ويرى غليون أن ذلك "يؤدي افتقار الدولة إلى مستوى الفاعلية السياسية أو القوة الوطنية وإلى سيطرة الروح التكنوقراطية عليها، فافتقار الدول إلى عمق أخلاقي يجعلها تعيش في مستوى فكرة البيروقراطية. وتتحوّل السياسة فيها إلى مسألة تنظيمية وتعبوية، لا إلى تنمية القيم الأخلاقية. ويحل في مكان المواطنين الأحرار المشاركين في المشروع الوطني عبر الدولة أشباه المواطنين التابعين لها والمتوسلين حمايتها (غليون، 2015، 39).

في دولة "الاستعمار الجديد" تأخذ البيروقراطية قوة في شكل الدولة وفي تنظيم العلاقات الاجتماعية ضمن منظومتها، حيث تتشكل عدة أنظمة داخلية تتداخل فيما بينها وتتأثر بالمتغيرات المحلية، حيث يوجد سلطة للحزب وسلطة للعائلة أو الحمولة وسلطة البيروقراطية نفسها. وهنا ينشأ نظامان: النظام الرسمي والنظام غير الرسمي حيث يتم مفصلة النظام غير الرسمي على المنظومة الرسمية، وكلهما لهما قوة، وتصبح العلاقات الزبائنية أساسية في طبيعة استمرارية مؤسسات الدولة مع البعد عن هدف المؤسسة نفسها. يرى الأيوبي أنّ معظم الزعماء في الدولة العربية لديهم هوس بالسلطة حيث يسعون لها كهدف أعلى من التنمية في حد ذاتها. وهذا يظهر في العمل الإداري حيث يسعى الزعماء إلى سلطة الزعيم الفرد، ونفوذ الآخرين يعتمد على مدى وصولهم إليه، فالوزرات منهكة من أجل الحصول على مخصصات أكثر، ليس لتنفيذ برامج معينة إنما لاختبار مستمر لموقعها داخل التراتبية البيروقراطية. وهذا ما يعطي البيروقراطية سمة التصلب والرسمية وصفة الاعتبارية (الأيوبي، 2010).

يرى أوين (2004) أن التمدد الهائل في جهاز الدولة يُعد سمة مشتركة بين دول الشرق الأوسط بعد الاستقلال. وهذا ناجم في معظمه عن نمو حجم الجهاز البيروقراطي والشرطة والجيش وعدد المشروعات العامة، وللسيطرة على هذا الجهاز الضخم وما يمثله من التزامات ضخمة أضحت فئة محدودة من الأفراد لها سلطات هائلة وعلى قمة هذا النوع من النظم الحاكمة. وكانت النتيجة قيام نوع من الأنظمة يوصف بأحسن أحواله بالفاشستية²، فهو نظام تتركز فيه السلطات في بؤره واحدة وتعرض التعددية فيه للشكوك ويمارس فيه النظام سلطة احتكارية على كل الأنشطة السياسية المشروعة (أوين، 2004، 52).

في مرحلة الاستعمار تبنى المستعمر بيروقراطية استعمارية من أجل إدارة السكان المحليين، والتي عملت على إحداث لاتكافٍ بين المناطق وبين السكان، وتنفيذ سياسة فرق تسد، ومحاولة قمع أي توجه للتطور الداخلي على مستوى الفكر والثقافة، وقمع أي مقاومة للاستعمار أيضاً. فسر ماكس فيبر البيروقراطية باقترانها بالتطور الرأسمالي والعقلانية الغربية، وهي لا تتحدد على مؤسسات الدولة وإنما تشمل المؤسسات الاجتماعية الأخرى الدينية والتعليمية والثقافية وقد ربطها بالسياق التاريخي لتطور الدولة. وبعد خروج الاستعمار ظهرت الدولة العربية ضمن سياق تاريخي استعماري والذي أوجد نظام محدد وعمل على تطويره، واستمرت تلك الدول في استخدام مفاهيم البيروقراطية في إدارة مؤسسات الدولة التي اتصفت بالتضخم والجمود. في بيروقراطية الدولة هي جزء لا يتجزأ من الاستعمار لأنها نتاج تطوره واستمراريته. لاحقاً بعد ذلك وضمن تطور التجربة الأوروبية وتطور النظام الرأسمالي تم إحداث تحول في الجهاز البيروقراطي حيث وجود بيروقراطية الدولة وأيضاً بيروقراطية نيوليبرالية، والمقترنة فيما حدث من تحولات في النظام الاقتصادي العالمي ودور البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في إدارة اقتصاد العالم (سيتم شرحه لاحقاً).

تعاني الدولة العربية من أزمة الشرعية فهي ليست امتداداً للتجربة الذاتية التحررية للمستعمرين، وتشكل امتداداً للاستعمار، وهذا يعبر عن أزمة في الثقافة والنظام بكل تجلياته. ويرى العروي أن المرء يجد الدولة العربية المعاصرة مهووسة بالسلطة والقوة، وقد تكون في الواقع في "جسمها". غير أن عنف هذه الدولة هو في حقيقة الأمر مؤشر على ضعفها وهشاشتها؛ فقد يكون الجهاز القسري قوياً لكن الدولة بمجملها ضعيفة لأنها تفتقر إلى العقلانية وإلى الدعم الأخلاقي والأيديولوجي والتربوي (العروي، 1981، في الأيوبي، 2010، 77). ويرى غليون أن سبب المحنة العربية هي الدولة نفسها وليس المجتمع، وأن الخروج على الدولة ليس خروجاً على دولة تمثل إرادة الأمة، إنما ثورة على دولة انقلبت على الأمة فصارت دولة ضد الأمة، لا تعيش إلا بتفكيك المجتمع واخضاعه ونزع الوعي الوطني والإرادة

منه (غليون، 2015). أما الأيوبي فيرى أنّ المقصود بـ "تضخيم" الدولة العربية أن ثمة مغالاة في تقدير قوة هذه الدولة وفعاليتها وأهميتها الحقيقية، وأنّ نمو الدول العربية ليس نمواً طبيعياً من رحم تاريخها الاجتماعي- الاقتصادي أو ثقافتها الثقافية والفكرية الخاصة بها؛ إنها دولة "ضاربة" (الأيوبي، 2010، 36).

إنّ الدولة العربية تأثرت بفكرة الدولة الأوروبية- القومية، وتطوراتها الحداثيّة والصراعية، وقد أنتجت دول مرتبطة هيئتها وبنيتها ووجودها بالنظام الاستعماري الرأسمالي، وأخذت هذه الدول تتحول على مسار التطورات الزمنية الأوروبية والذي أثر على طبيعتها للتماشي مع تلك التحولات، لذلك فكرة الدولة العربية مفهوم فيه اشكالية كونها أخذت طابع استبدادي ولا تكاملي وعنيف ضمن السياق الاستعماري المستمر وضمن التناقضات الداخلية الأوروبية والتي تجسدت في القومية، والحداثة، والاستعمار، والبيروقراطية.

3- النيولبرالية والدولة النيولبرالية والاستعمار الجديد النيولبرالي والبيروقراطية النيولبرالية

إن المعرفة الإدارية المستخدمة اليوم في العالم الحديث اشتُقت من التجربة الأوروبية الحديثة حيث هدفت إلى تحقيق الفعالية والدقة وزيادة الإنتاج في السياق الحداثي، وتم التعامل معها ضمن العلوم الطبيعية المجردة مع نفي وتجريد الطابع الإنساني، كما أنها ترجع في جوهرها إلى الثقافة النيولبرالية التي تعزز ثقافة الربح والمادية والفردية والاستهلاك، وهي مقترنه بفكرة الدولة الحديثة والنظام الرأسمالي. يبين Fredrich Hayek (1989) أن المعرفة تم تنظيمها معتمدة على تحليل مُجزأ؛ نفي الدور الإنساني القصدي أو الاختياري، واستخدام افتراضات حادة والمنطق الاستنتاجي. حيث أن الفضيلة أو الأخلاقيات لا يمكن فصلها عن القصديّة الإنسانية، والشرط المسبق لجعل دراسات إدارة الأعمال هو علم معناه نفي الاعتبارات الأخلاقية في النظريات وبالتالي في توصيفنا للممارسات الإدارية أيضاً.

يوجد اشكالية في الأسس الإدارية كحقل معرفي كما يوجد اشكالية في الدولة، فلا يمكن فصل الدولة عن الطبيعة الإدارية الخاصة بها، فالإدارة نشأت على أسس علمية وليس إنسانية، كما أنّ أصولها ترجع إلى الفردانية والربح والمادية. عندما تُطبق الإدارة على مستوى المؤسسات فإنها تُنتج واقع مُستنبط من الأسس التي نشأت منه، وهي بالتالي تُعزز النظام النيولبرالي. وعندما تُفسر هيبو البيروقراطية النيولبرالية فإنها تصفها بالمجردة عن الواقع الإنساني إلى درجة أنّ التجريد أصبح

الواقع بذاته. أيضاً ماكس فيبر وصف مكونات الإدارة البيروقراطية بوجود فصل بين الذات والوظيفة ووجود النظام المقنن، ويُن أنه كلما هيمنت البيروقراطية أكثر كلما فقدت إنسانيتها أكثر.

النيوليبرالية هي نظام عالمي وهي تعبير عن العقلانية الغربية، وهي فلسفة اقتصادية واجتماعية تتمحور حول فكرة السوق وآلياته، بحيث تُحدث تحول في المجتمع والنظام ليتوافق مع السوق وديناميكياته، ويكمن دور الدولة بحماية وتطوير هذا النظام، إلى الحد الذي تصبح فيه شريكة مع الطبقة الرأسمالية المسيطرة. وحدد النظام النيوليبرالي دور الدولة وربطها ضمن النظام العالمي الرأسمالي، فالدولة تعمل على خصخصة العام وحماية الأسواق والملكيّات الخاصة وفرض الأمن، فإنّ "النيوليبرالية تتناول شكل وجودنا - الطريقة التي نوجه بها سلوك أنفسنا، وعلاقتنا مع أنفسنا والآخرين. النيوليبرالية تعرّف قواعد وجودية معينة في المجتمعات الغربية، وبعيداً عنهم- تفرض ذلك على المجتمعات الأخرى التي تتبعهم على مسار الحداثة... وتحاذي العلاقات الاجتماعية ضمن نموذج السوق. تعزز وتبرر عدم المساواة المتزايد، وتحدث تحول في الفرد حيث يعيد إدراك ذاته وسلوكه ضمن فكرة المغامرة "المشروع أو المؤسسة" (Darot and Laval, 2013, 13).

تأخذ الدولة صفتها من النظام النيوليبرالي فهي الدولة النيوليبرالية التي تتميز بالسمات التالية: "الحد الأدنى من نطاق ودور قطاع الدولة، إحلال الملكية العامة بالمؤسسة الخاصة والإدارة وسيطرتهم، التحالفات المتزايدة بين الدولة ورأسمال الخاص، سحب برامج الرفاهية واعتماد قيادة السوق للسّلع والخدمات، وتحويل المؤسسات العامة على أساس الهياكل والاستراتيجيات التجارية" (Haque, 1999, 204). إنّ سيطرة أمريكا على العالم واختراق مؤسساتها للدول، جعلت معظم الدول النامية تعمل على استبدال الأهداف التنموية للدولة مثل بناء الدولة والتطور الاجتماعي والتنمية البشرية بأهداف تجارية مثل الفعالية والإنتاجية والنمو الاقتصادي (Martin, 1993). و"على مستوى آخر فرضت النيوليبرالية تحول في طبيعة الدولة والتي انعكست على سياساتها، في الثمانينات التنوع في شكل الدولة تم إحلاله بنموذج دولة موحد عالمياً مبني على افتراضات وسياسات نيوليبرالية- نموذج دولة يخدم الرأسمال الخاص، والذي يفضل السوق ويقلد إدارة الأعمال (Haque, 2008, 12). اقترن النظام النيوليبرالي بالخصخصة والتي أدت إلى تداخل العام مع الخاص عندما تم خصخصة المؤسسات العامة من مستشفيات ومدارس واتصالات ومواصلات وتحولها من القطاع العام إلى الخاص.

لعب البنك الدولي وصندوق النقد الدولي الدور الجوهري في انتشار النيوليبرالية في العالم وخصوصاً في دول "العالم الثالث" عندما فرضوا "برامج التكيف الهيكلي" في الثمانينات متبنين مبدأ "حجم واحد يناسب الجميع"، أي فرض نفس النظام على تلك الدول، وهذا أدى إلى السيطرة على الدول وإفكارها من خلال الهيمنة الاقتصادية وذلك بإعطاء القروض للدولة، وتقوية الطبقة الحاكمة ومساعدتهم عسكرياً، والسيطرة البحرية والجوية (بناء قوة عسكرية). هذه البرامج أدت إلى زيادة الفقر والعنف والصراعات في بلدان عديدة، مع فرض أنظمة قمعية استبدادية، إضافة إلى إتحالها بالديون والفوائد. فُرضت المنظومة النيوليبرالية على مستوى عالمي، فهي عابرة للحدود، حيث تم تحديد دور الدولة وإلزامهم في اتفاقيات اقتصادية دولية تُلزم الدولة بإعطاء الحماية للاستثمارات الخارجية وتوفير كافة التسهيلات لهم. تُعتبر الدولة عنصر مهم لحماية ازدهار السوق، فيصبح هناك تعاون ومصالح بين الدولة ومالكي رأسمال (الشركات العملاقة)، وهذا يتنافى مع المفهوم الاقتصادي "أتركه يعمل" ³laissez-faire، أي عدم تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية.

ويرى جونا أن برامج التكيف الهيكلي أثرت على إفريقيا أولاً أدى ذلك إلى تآكل الالتحام الثقافي والاقتصادي والسياسي الذي سعى إلى دمج العناصر المختلفة للدولة القومية. ثانياً، عمقت عملية التنمية غير المتكافئة على أسس عرقية وإقليمية التوتر والشعور بالإقصاء على جميع مستويات الحكم. ثالثاً، أدى الاستقطاب الاجتماعي الذي رافق هذه العملية إلى تقويض بقاء الطبقة الوسطى التي كانت ستوفر استقرار قوة للدولة، رابعاً، أدت إلى ازدهار التطرف العرقي والديني لأن فقدان الضمان الاجتماعي والذي تمثله الدولة شكل تضامناً دينياً وعرقياً لمواقع بديلة لتنظيم الحياة الاجتماعية (Egwu, 2007, 425)، وهذا يتشابه مع الدول الأخرى التي تم فرض برنامج التكيف الهيكلي عليها.

أيضاً تقترن النيوليبرالية بالثقافة فلولا الثقافة لما كان للسوق أن ينجح. يوضح هارفي أن عملية التحول نحو النيوليبرالية قد أفرزت الكثير من التدمير الخلاق ليس فقط في الأطر المؤسسية والسلطات السابقة لها، بل وأيضاً في تقسيم العمل والعلاقات الاجتماعية وفي تقديمات الرفاه، وحتى في التكنولوجيا وأسلوب الحياة والتفكير والأنشطة الانجابية وفي الانتماء للأرض وعادات القلوب (الألفة). وبمقدار ما تثمن النيوليبرالية تبادلات الأسواق وتعددها أخلاقاً بحد ذاتها قادرة على أن تكون بمثابة مرشد ودليل لكل أفعال الإنسان (هارفي، 2013، 8).

ويعبر آخرون عن تأثير النيوليبرالية بالقول: "كنتيجة للنيوليبرالية العالمية، يبدو أن اللغة والنموذج المؤسسي للسوق تسربت لجميع جوانب الحياة المعاصرة، فالإعلام والثقافة العامة

تشربت مفهوم أنه ينبغي علينا امتلاك ذوات ريادية، وأنه يجب علينا أن نكون دائماً على أهبة الاستعداد لإعادة تأهيل ذواتنا تأهباً لفرص جديدة، وأن السعي وراء المنفعة الذاتية أمر طبيعي، وأن الثراء العريض هو مجرد مكافأة للمبتكرين والمبدعين" (Evan and others, 2013, 63). تلعب النيوليبرالية الدور المركزي في تشكيل البنية الاقتصادية، والثقافية، والسياسية العالمية، والمحلية. وإن السمة الرئيسية للنيوليبرالية هي تعميم المنافسة كقاعدة سلوكية، والمشروع كنموذج للذاتية، النيوليبرالية الجديدة هي عقلانية الرأسمالية الجديدة، رأسمالية متحررة من مرجعيتها القديمة (Darot and Laval, 2013, 9).

إن النيوليبرالية هي مرحلة من مراحل التطور الرأسمالي الأوروبي الذي بدأ منذ القرن الخامس عشر، والاستعمار الجديد النيوليبرالي هو مرحلة من مراحل تطور الاستعمار حيث الحكم والهيمنة عن بعد مع إخفاء أسس المسألة واختراق أي قوة تنصدي له من خلال ممارسة البيروقراطية النيوليبرالية. لعب صندوق النقد الدولي والبنك الدولي الدور المحوري بإدارة اقتصاد العالم وتم اختراق الاقتصاد من خلال الشركات والبنوك والشركات متعددة الجنسيات والذي هدفهم الربح. هذه المرحلة بدأت تأخذ بُعداً أكثر قوة وسيطرة بشكل متسارع عند بداية ضعف الاتحاد السوفيتي ولاحقاً انهياره، حيث أصبحت الولايات المتحدة محتكرة للقوة، وأصبح العالم أكثر انفتاحاً.

إن تحول الدولة العربية إلى نيوليبرالية أدى إلى تجريد الدولة من دورها وتبني سياسات أكثر قمعية، وُضعت الدولة في مأزق لأن الشعب في السابق كان في حالة من الهدوء، حيث كانت الدولة توفر الخدمات الأساسية والقدرة على العيش وتحافظ على الثقافة. هذا التحول في دور الدولة أدى إلى الفقر وتهديد الثقافة وجاء مرتبطاً في الطبيعة التحولية للحدث، حيث فقدان المعنى وفقدان هبة الدولة والانفتاح الثقافي والتوجه نحو الفردانية. اقترن ذلك مع بداية ضعف وترهل الثقافة الغربية التي أصبحت في مأزق أخلاقي وثقافي وتاريخي، "مأزق العقلانية الغربية"، "أزمة ما بعد الحداثة"، "اشكالية القومية". كل ذلك جعل المجتمعات العربية في حالة من الفوضى بين ثقافة في حالة جمود نتيجة قمع واستبداد لفترة طويلة من الزمن، وتحول في دور الدولة من اجتماعي إلى محافظ على رؤوس الأموال، وثقافة عالمية متناقضة غربية مهيمنة حيث المواطنة والحرية وحقوق الإنسان وفردانية قوية ومجتمع مدني، هذا الضعف أدى إلى تفجر العالم العربي سواء على مستوى العلاقة مع الغرب وعلى مستوى فكرة الدولة، وما زال متوجهاً نحو ذلك في أي لحظة. لذلك يحلل المفكر عبد الله العروي أن الدولة الوطنية في طريقها للانهار وأن المستقبل لسلطة القبيلة أو

للفدرالية الهشة" (العروي، 2020). ويرى أيضاً أنّ كل دولة لا تملك أدلوجة تضمن درجة مناسبة من ولاء وإجماع مواطنيها لا محالة مهزومة (العروي، 2011، 200).

إنّ الاشكالية في الدولة العربية في تبنيها مفاهيم من تجربة منبثقة من السياق الغربي، يجعل مسألة التحرر على المستوى العام معقدة، فإن مستوى العمق المفاهيمي يرجعهم إلى نفس النقطة حيث رفض الاستعمار، ولكن تبني مفاهيم الدولة، والبيروقراطية، والإدارة، والإرهاب، والحرية، وحقوق الإنسان، والمجتمع المدني، والفردانية، والمادية الخ، الأمر الذي يزيد من تعقيد الاستعمار ومن الحاجة إلى القوة للتحرر منه على مستوى ثقافي وفكري.

في ظل النظام المعلوم ونتيجة لهيمنة الرأسمالية، اقترن تطور النظام الرأسمالي المعلوم بإدارة العالم من خلال البيروقراطية النيوليبرالية وتعرّفها هيبو بأنها :

المبادئ والأعراف والقواعد والمعايير والأرقام وترميز الإجراءات، وإضفاء الطابع الرسمي على السلوك، ويجب فهمها من خلال عملية التجريد التي تُوجه الحياة في المجتمع. وتُفسّر أن النيوليبرالية تظهر على أنها بيروقراطية عالمية، فإن انتشار البيروقراطية من خلال القواعد والأعراف والإجراءات الرسمية هي ليست محددة على عالم العمل والمهن، فنستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك، فصِفَة جعل العالم بيروقراطياً في الوضع المعاصر تُنتج تعميمات هذه الشكليات. هذه التعميمات مشحونة بالشعور بالخوف وعدم الأمان والريبة، وإدارة هذه المخاوف تكون من خلال مبادئ الحيلة (الوقاية) والحذر (Hibou, 2015, 29).

هذه التحولات أدت الى تحول في الاستعمار من الاستعمار الجديد إلى الاستعمار الجديد النيوليبرالي، لذلك ترى هيبو (2015) أن البيروقراطية النيوليبرالية لم تعد حكراً على شؤون الدولة وهي تخترق كافة مجالات الحياة، وأهم ما يميزها هو التهجين الراهن ما بين "العالم" و"الخاص"، وهي مرتبطة بتفريغ الدولة من قوتها ومؤسساتها في إطار طمس الحدود بين "العالم" "الخاص" (Hibou, 2015).

يرى Aggestam and others أنّ الدول العربية اتصفت بالاستبداد في ظل النيوليبرالية، وهناك صفات خاصة تتميز بها: فهي تفقد وجود مشروع أيديولوجي للدولة، وهي تعتمد على نظام الحكم الوراثي الجديد أو الزبائني، وأيضاً القدرة التي تظهرها الأنظمة الاستبدادية الجديدة على ضم النخب وحتى "خلقها". لهذا الغرض، لا تزال المحسوبية الشخصية هي الأداة الأكثر فاعلية، ولكن بُذلت أيضاً

محاولات مهمة لبناء المزيد من أشكال المحسوبية المؤسسية والتي لم تكن موجودة (Aggestam and others, 2009).

في السياق النيوليبرالي يتم التلاعب بالديمقراطية من خلال التدخل الخارجي، من حيث القمع، وعلى مستوى آخر التخلص من السلطة القائمة باستبدالها بسلطة أخرى، ويكون ذلك من خلال فرض إعطاء حيز ديمقراطي لبروز تنافسات واحتدادات والتي تتحول لاحقاً إلى صراعات داخلية مُأسسة، مع الظهور بصورة عالمية أنها تعزز الديمقراطية العالمية وتنبد العنف.

إنَّ مفهوم الدولة يتعدى المفهوم السياسي، فالدولة تأخذ بُعد تاريخي وثقافي، واجتماعي، وإداري، وقانوني. وفي ظل النيوليبرالية تعمقت الحقول في تشكيل طابع الدولة من حيث طبيعة الاستهلاك، وقوانين الحقوق، والخطاب التنموي ودور الدولة. أخذت طابع التجريد من ناحية أيديولوجية وتاريخية، لذلك اتسمت بضعف على مستوى بنيتها وعلى مستوى آخر اتصفت بالقوة والهيمنة في فرض ذاتها واستمراريتها، وذلك ما يُفسر الإنفاق الكبير في الدول العربية على الأمن والعسكر من أجل إدارة الداخل.

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة توضيح العلاقات المفاهيمية من حيث الدولة والاستعمار والنظام الرأسمالي والبيروقراطية، ضمن التطور التاريخي الأوروبي وتحولاته، وكيفية انعكاساته على دول العالم الثالث، مع وجود تحولات في طبيعة تلك المفاهيم والتي تطورت عبر الزمن.

لم تختلف هذه المفاهيم في جوهرها، وعلى العكس أصبحت أكثر حدة وتجريداً؛ حيث هيمنة البيروقراطية، وتجرد الدولة من دورها الاجتماعي، وزيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وتوحش النظام الرأسمالي على المستوى العالمي، وأحداث تحول ثقافي حيث مفصلة الحياة الاجتماعية على النظام الرأسمالي.

المراجع

- الأيوبي، نزيه (2010)، تضخم الدولة العربية - السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط، ترجمة أمجد حسني، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ادجار، أندرو وبير سيدجوك (2009)، موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهري، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- أوين، روجر (2004)، الدولة والسلطة والسياسة " في الشرق الأوسط"، ترجمة عبد الوهاب علوب، ط1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- بندكت، أندرسن (1999)، الجماعات المتخيلة - تأملات في أصل القومية وانتشارها، ترجمة ثائر ديب، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- تشتري، بارثا (2013)، الفكر القومي والعالم الاستعماري، ترجمة عدنان حسن، بيروت: قدمس للنشر والتوزيع.
- عبد الرحمن، حسام عيسى (2019)، "أزمة الدولة الوطنية- العربية: تحديات التراث السياسي التقليدي والحدائق في حقبة ما بعد الاستعمار". مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- Retrieved in 25/12/2022: <https://www.mominoun.com/articles>
- العروي، عبد الله (2020)، "نهاية الدولة الوطنية والمستقبل لسلطة القبيلة". الغربال انفو، 2020/8/2
- Retrieved in 20/9/2020: <https://alghirbal.blogspot.com>
- العروي، عبد الله (2011)، مفهوم الدولة، ط11، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- غليون، برهان (2015)، المحنة العربية - الدولة ضد الأمة، ط4، بيروت: المركز العرب للأبحاث ودراسة السياسات.
- غدنز، أنتوني (2005)، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- غيرتز، كليفورد (2009)، تأويل الثقافات: مقالات مختارة، ترجمة محمد بدوي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- فانون، فرانتس (1972)، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، ط1، بيروت: دار القلم.
- لومبا، أنيا (2007)، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة محمد عبد الغني غزيم، سوريا: دار الحوار.
- ويمر، أندرياس (2019)، "لماذا القومية تعمل... ولماذا هي هنا لتبقى؟"، ترجمة علاء الدين أبو زينة، الغد.
- Retrieved in 1/6/2021: <https://alghad.com>
- هارفي، ديفيد (2013)، الوجيز في تاريخ النيوليبرالية، ترجمة وليد شحادة، دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب.

هارفي، ديفيد (2005)، حالة ما بعد الحداثة - بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة محمد شيا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

هوبسباوم، أريك (2004)، "مقدمة في ابتداء التقاليد" في اختراع التراث: دراسات عن التقاليد بين الأصالة والنقل والإختراع، تحرير ايريك هوبسباوم وتيرنس رينجر، ترجمة شيرين أبو النجا وآخرون. القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية.

Aggestam, Karen and others (2009), "The Arab State and Neo-liberal Globalization" in *The Arab State and Neo-liberal Globalization: The Restructuring of State Power in the Middle East*, edited by Laura Guazzone and Daniela Pioppi, pp 325-350, U.K: MPG Books Group.

Berman, Marshall (1982), *All that is Solid Melts into Air: The Experience of Modernity*, New York: Simon and Schuster.

Dardot, P. and Laval, C. (2013), *The New Way of the World: On Neoliberal Society*. London: Verso.

Egwu, S. G. (2007), "Beyond the" Revival of old Hatred in The State and Conflicts in Africa", in *Introduction to Peace and Conflicts Studies in West*, Ibadan: Spectrum Books.

Ella, Shohat (1992), "Notes on the Post-Colonial", *Social Text*, No 31/32: pp.93-113.

Evans, Peter B., and William H. Sewell (2013), "Policy Regimes, International Regimes, and Social Effects" in *Social Resilience in the Neoliberal Era*, edited by Peter A. Hall and Michèle Lamont, pp 35-68, New York: Cambridge University Press.

Gellner, Ernest (1983), *Nations and Nationalism*, England: Blackwell.

Haque, M. S. (2008), "Global Rise of Neoliberal State and Its Impact on Citizenship: Experiences in Developing Nations", *Asian Journal of Social Science*, No 36: 11-34.

Haque, M. S. (1999), "The Fate of Sustainable Development under the Neoliberal Regimes in Developing Countries", *International Political Science Review*, 20(2): 199-222.

Hayek, Friedrich (1989), "The Pretense of Knowledge", *The American Economic Review*, 79(6):3-7.

Harry Magdoff (1982), "Imperialism: A Historical Survey" in *Introduction to the Sociology of Developing Societies*, edited by Hamza Alavi and Teodor Shanin, pp 11-29, London: New York: Monthly Review Press.

Hibou, Be'atrice (2015), *The Bureaucratization of the World in the Neoliberal Era*, Trans. Andrew Brown, U.S.A: Palgrave Macmillan.

Martin, Brendan (1993), *In the Public Interest: Privatization and Public Sector Reform*, London: Zed Books Ltd.

Nkrumah, Kwame (1965), *Neo-Colonialism, the Last Stage of Imperialism*, New York: International Publishers Co. INC.

Smith, B.C. (2003), *Understanding Third World Politics- Theories of Political Change and Development*, 2nd edition, China: Palgrave Macmillan Ltd.

Tilly, Charles (1985), "War Making and State Making as Organized Crime" in *Bringing the State Back*, edited by Peter Evan and Dietrich Rueschemeyer, and Theda Skocpol, U.K: Cambridge University Press.

الهوامش

¹ - عبر الرئيس الفرنسي أن "القومية خيانة للوطنية" وقد نشرت في عدة محطات:

أنظر: قناة جلوبال نيوز 2018- <https://www.youtube.com/watch?v=Ir2Fw5CK3Rw>

أنظر: قناة فوكس 2018- <https://sports.yahoo.com/macron-calls-nationalism-betrayal-patriotism-232120233.html>

أنظر: U.S.A today: - <https://www.usatoday.com/story/news/politics/2018/11/11/macron-/1966474002/world-leaders-rebuke-nationalism-world-war-event-attended-trump/>

² - إن الأنظمة الفاشستية تختلف عن الأنظمة الشمولية، فهي تفتقر إلى المؤسسات القوية الضرورية للسيطرة على المجتمع أو تحويله بالطرق البيروقراطية وحدها. ونتيجة لذلك يصبح من الضروري حشد الجماهير وتوحيد الفئات من مختلف الاتجاهات واحتواء المعارضة من خلال سبل شتى تتراوح بين التهيب والبطش (العصا) والترغيب الاقتصادي (الجزرة). وبين اللجوء إلى الانتماءات الشخصية والعرقية والطبقية وبين العضوية الإجبارية في نقابات أقيمت بحرص شديد وتكتلات مهنية صممت لتوجيه هؤلاء كل في مكانه (أوين، 2004، 52).

³ - أتركه يعمل- هو مفهوم اقتصادي وتعريفه في القاموس "عقيدة تعارض التدخل الحكومي في الشؤون الاقتصادية بما يتجاوز الحد الأدنى الضروري للحفاظ على السلام وحقوق الملكية. وهي أيضاً فلسفة وممارسة تتميز عادة بالامتناع المتعمد عن التوجيه أو التدخل خاصة في حرية الاختيار والعمل الفردي (Merriam Webster Dictionary).